# أيام في البال الخيام

أمراء النصر والتحرير



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org
جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

# أيام في البال

## الخيام

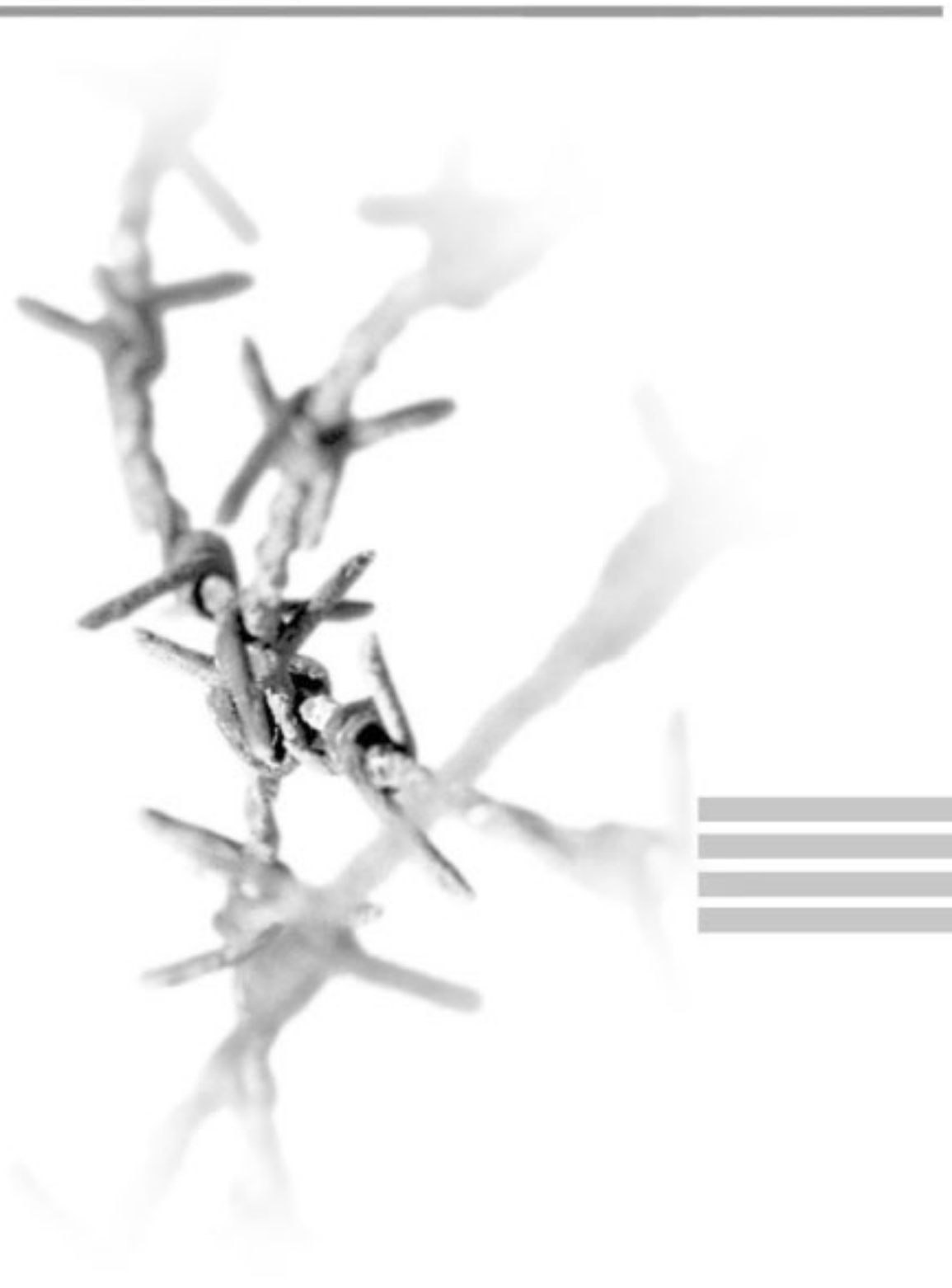

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الاسلامية الثقافية

بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام

هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٥٣/٢٤ . ٣٢٧/٢٥

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

- قصـة قريــة: الخيام.
- العنــــوان: أيَّام في البال.
- الكـــاتـب: د. فؤاد مرعي.

الدرجـــة: نالت المرتبة الثانية في مسابقة «القرى الشاهدة والشهيدة» التي نظمتها الوحدة الثقافية المركزية في حزب اللّه ورعتها بلدية بنت جبيل.

- الناشـر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.
- الطبعة: الاولى حزيران ٢٠٠٤م ـ ربيع الآخر١٤٢٥هـ.

## الفصل الأول

شمس الظهيرة فوق الخيام تحرق العشب اليابس في الأماكن المكشوفة. وفي الشوارع الداخلية تسري سخونة ناشفة تجعل البلدة مُقفرة. إنها ساعات القيلولة في هذا الصيف القائظ. لكن سهل المرج المُستلقي ما بين الحدود مع فلسطين المحتلة جنوباً، والخيام شرقاً، لا تُثنيه حدة الشمس عن نشاطه المعتاد. فالأصوات لا تزال تُسمع في الأرجاء المُمتدَّة على مدى النظر. أما «الدردارة» فهي كعادتها تستقبل الوافدين إليها تحت شجرة الكينا العملاقة حيث أقام «أبو علي» دكَّانه الصغير.

في ركنٍ قريب من جذع الشجرة الضخم جلس ثلاثة أشخاص حول طاولة عتيقة ذات قوائم تتمايل فوق أرضٍ غير مستوية. فوق الطاولة بدت ثلاث زجاجات برتقالية، صحنان صغيران مليئان بالفستق و«القضامي»، ومنفضة زجاجية.

قال الشاب ذو الندبة فوق الجبين لرفيقه:

ـ هنا في هذه البقعة بالذات حيث ترتفع نباتات «البوط» كُنَّا نضرب الأرض بأقدامنا العارية فنعلو ونسقط على رؤوسنا في مياه البُركة. لستُ أدري ماذا دهاني يومها! أذكر أنني أحسستُ بنشاطٍ زائد عن المعتاد. كُنَّا نتفاخر بتكرار القفزة إيَّاها. إلى أن قفزتُ تلك القفزة المشؤومة. حاولتُ

تحـريك ذراعـيَّ تحت الماء. كـانت يـداي مُـسـمَّـرتين في قلب الطين. جذبتُ نفسي إلى أعلى فلم أستطع الإفلات.

قاطعه الشاب الجالس قبالته:

ـ لا شك في أنها لحظات مرعبة!

ـ لا يمكن وصـفـهـا بكلمـات. لقـد خلتُ أنـنـي هالكٌ تحت الماء.

ـ وكيف تخلَّصتَ من هذه الورطة؟

سأل الشاب الثالث باهتمام.

ـ في اللحظة التي هممتُ فيها بالإستسلام وجدتُ يديَّ تتحرَّران من غيـر جهد. فانتفضتُ دافعاً جسمي نحو سطح الماء. لم يلحظ أحـدٌ ممن كـانوا مـعي مـا جـرى. كـانوا يتصايحون ويدفعون بعضهم بعضاً باتجاه الحافَّة. ألم تكن معنا يومها يا حسن؟

ـ لا، لا أذكـر ذلك. لكن مـاذا شعـرتَ بعـد هذه التجـربة؟ ألم تترك أثراً في نفسك؟

ـ شعـرتُ كم أن الحـيـاة ثمـينة! نعـيشـهـا في غـفلة دون أن نُدرك أهمـيتـهـا. نظُنـهـا طويلة فنؤجِّل مـا يـنـبـغي أن نفعله اليوم إلى الغد. لقد حفظتُ درساً لن أنساه.

ـ لكنكَ يـا علي لـم تُقلع عـن عـادة الـقـفـز والسـبـاحـة! تساءل الشاب المواجِه لعلي ذو الشاربين الخفيفين.

ـ لقد تعلَّمتُ أن أكون أكثر حذراً. ألم تواجِه أنت تجربةً كهذه عندما داست قدمك شيئاً ناتئاً في قاع النهر؟ أذكر أنني صحتُ بك: إنتبه يا أحمد إنك تنزف! فكاد يُغمى عليك عندما رأيت نفسك تسبح في بركةٍ من الدماء.

ـ لحظات لا تُنسى. إنها ضريبة العيش في أحضان الطبيعة. لا أظن أن بإمكاني أن أُغيِّر بعضاً من تلك العادات، فأنا أنتمي إلى هذه الأرض البكر منذ ولادتي.

... الهواء المنعش المتُلاعب بأنفاس شجرة الكينا راح يؤرجح ذاكرة الفتيان ما بين الماضي القريب والبعيد. حتى أنهم تحدَّثوا عن الأيام التي كانت تسرح فيها الضباع في هذه المنطقة. ثم عن المعركة الرهيبة التي حدثت في «تلة الجلاحية» بين الإنكليز والفرنسيين أثناء الحرب العالمية الثانية.

كانت الشمس تتأهَّب للإختفاء خلف قلعة الشقيف حين كان الثلاثة قد وصلوا إلى أعلى السفح الغربي لتلَّة الخيام. تفرَّقوا بعد أن تواعدوا على اللقاء بعد العشاء.

سلك علي الطريق الفرعية المؤديَّة إلى منزل والديه القريب من الساحة الرئيسية. أمام المنزل تجمهر عددٌ من الأشخاص حول ترانزستور يحمله أحدهم. كان صوت المذيع مسموعاً إلى آخر الشارع. تخرقه أصواتٌ متقطِّعة

تُعلِّق على هذا الخبر أو ذاك. سمع علي المذيع وهو يُعلن: «ندعو جميع العسكريين للإلتحاق بثكناتهم على الفور»...

اختلط بالجمهرة الصغيرة المؤلفة بمعظمها من سكان الحي. كانت البلاغات تتوالى من الترانزستور الصغير، تعقبها موسيقى عسكرية وأناشيد وطنية.

مشهد الناس وبلاغ المذيع ذكَّراهُ بأيام حزيران عام ١٩٦٧. في ذلك الوقت تحلَّق قسمٌ من الأهالي في ساحة البلدة حول جهاز ترانزستور في قهوة الحاج عبد القادر. لكن القسم الأعظم منهم احتشد في الأماكن المُطلَّة على سهل الحولة والجولان وجبل الشيخ من الجهة الجنوبية للخيام. من هذا المكان بالذات كانت المستعمرات الإسرائيلية تُشاهد بوضوح وسط البساتين والمروج المُمتدَّة حتى بحيرة طبريا. أما من جهة الشرق فتبدو هضبة الجولان كمنحدر مترامي الأطراف مائل إلى الغرب فوق المستعمرات.

قال علي في سرِّه: «إن الأيام تُكرِّر نفسها. وجوه مُترقِّبة. بلاغات وموسيقى عسكرية. لكن الأحداث تدور هذه المرة في الداخل، في قلب العاصمة!».

دلف إلى البيت. نادى أم علي. فأطلَّت برأسها من وراء باب الحمَّام حيث كانت تُفرغ سطل الماء. قالت:

ـ سوف أحضر حالاً. لقد فرغتُ للتو من أعمال المنزل.

سمعته يقول:

ـ ماذا لديكِ للعشاء؟

ثم رأته يرفع غطاء الطنجرة الموضوعة على «الغاز».

ـ إنها فارغة! قال بدهشة.

ـ انتظر سوف أعد لك عشاءك. هل سمعتَ الأخبار؟ سألَتْ وهي تمسح يديَّها بالمنشفة.

ـ إنها أخبار سيئة. لذا أريد أن أتعشَّى قبل أن أفقُدَ شهيتي.

ـ سوف أعد لك بيضاً مقلياً. أمهلني بضع دقائق فقط.

في المساء كانت حلقات السهرة قد عُقدت بحيث يسمع المُتجوِّل في الشوارع النقاشات الدائرة في البيوت وعلى الشرفات.

إلتقى الأصدقاء الثلاثة في ساحة البُركة أمام المدرسة الرسمية. من هناك توجَّهوا نحو الحارة المسيحية. مرُّوا بمحاذاة منزل الواعظ المُلاصق للكنيسة. ثم أكملوا سيرهم باتجاه حارة الجلاحية. وقفوا أمام منزل تحاذيه شجرة صفصاف. تقدَّموا باتجاهه وقرعوا الباب. ما هي سوى لحظات حتى فُتح هذا الأخير. أطلَّ رجلٌ في العقد الخامس من عمره. بادره علي قائلاً:

ـ مساء الخير يا مختار.

ـ أهلاً بالشباب، تفضلوا.

دخلوا إلى البهو الكبير حيث اصطفَّت على الجانبين كنبات قديمة غير متناسقة الأحجام والموديلات يجمعها شيءٌ واحد أنها من خشب الزان. في الوسط امتدت بضع طاولات للضيافة. وفي الزوايا أطلَّت أوراق خضراء من شتلات اختفت جذوعها خلف الأثاث.

ألقى القادمون التحية على الحاضرين وكانوا خمسة. كان بُخار الشاي يتصاعد من الفناجين الموضوعة على الطاولات أمام الضيوف. سأل المختار موجهاً كلامه للزوَّار الجدد:

ـ هل لديكم أخبار جديدة؟

رد علي:

ـ لقد أتينا إلى هنا للتزوُّد بالأخبار.

تدخَّل شرطي البلدية جميل قائلاً:

ـ لقد استدعوا الإحتياط في إسرائيل.

سأل أحمد:

ـ وماذا يعني ذلك؟

أجاب جميل:

ـ إنه يعني أن الإسرائيليين يُخطِّطون لعدوانٍ ما. فالبلد تعمُّه الفوضى. وأخبار الإشتباكات طغت على كل ما عداها.

العاصمة مشلولة. الطرقات مقطوعة. المؤسسات الرسمية لا تعمل. المدارس مُقفلة. إنه وضع مأساوي.

قال علي:

ـ إن وضعاً كهذا يُغري العدو بالتدخُّل، لقد لمحنا تحرُّكات إسرائيلية على الحدود. عرفناها من حركة المصابيح المُضاءة. يبدو أن أرتالاً من الآليات تتأهَّب للقيام بعملٍ ما.

تساءل أبو أسعد عامل البناء:

ـ لكن ماذا بمقدورهم أن يفعلوا؟

ـ علينا أن نتوقَّع كل شيء. قال المختار.

ـ هذا يعني أن نكون على استعداد للمواجهة. عقَّب حسن.

ـ وماذا بإمكاننا أن نفعل؟ سأل أبو خليل التاجر المعروف.

رد المختار:

ـ لقد بنينا الملاجئ إثر القصف المُدمِّر الذي تعرَّضت له البلدة. علينا تنظيفها وتجهيزها.

قال علي:

ـ أظن أننا بحاجة لتوزيع السلاح على الناس. مَن سيدافع عن البلدة في حال قرر العدو مهاجمتها؟

قال أبو خليل وقد أمتقع لونه:

ـ أرى أن الأمور تُنذر بكارثة. ما إن يُصبح السلاح في أيدي الناس حتى تعُم الفوضى وتغرق البلدة في المشاكل.

تدخَّل أحمد قائلاً:

ـ لكن من دون سلاح سنكون عرضة للتصفية! لقد حدث هذا مراراً في القرى الفلسطينية.

ـ إذن هل من الحكمة أن نضع السلاح في أيدي الناس؟

تساءل المختار.

ـ ولمَ لا؟ سأل علي، ثم أردف قائلاً:

ـ إن الشعب اللبناني معظمه مُسلَّح، فكيف بالأحرى القرى الحدودية؟ إننا نحتاج إلى السلاح أكثر مما يحتاجه غيرنا.

وقف أبو خليل وقد حمل سبحته السوداء في يده. قال وقد بدا الوجوم على وجهه:

ـ إيَّاكم أن تكونوا جادِّين! هل جُننتم؟

ـ اجلس يا أبا خليل، ماذا دهاك! إنه مجرد كلام بكلام.

قال المختار وهو يُشير بيده لأبي خليل.

علَّق الشرطي جميل قائلاً:

ـ بلغني أن أهالي القرى المجاورة باتوا جميعهم مُسلَّحين. إنها أمور لا يمكن تفاديها. أنا شخصياً لا أُحبذ حمل السلاح. لكن الأمر لا يتعلَّق بي وحدي. أعرف أشخاصاً من البلدة أحضروا أسلحة وخبَّأوها. هذه أمور سريَّة لا تُبحث في العلن. ليت هذه الحرب لا تقع.

قال علي وهو يأخذ فنجان الشاي من يد المختار:

ـ أظن أن دورك يا مختار هام جداً في هذه المرحلة. إن كلمتك مسموعة من الأهالي. فما رأيك بتوجيه دعوة إليهم للاجتماع والتداول في الأمور المُستجدَّة؟ إن الإشاعات سوف تُبلبل أجواء البلدة.

ـ لقد سمعتُ أن بعض المتعاملين مع العدو تلقوا أسلحة على وجه السرعة.

قال حيدر الإسكافي بعد أن ظل صامتاً طوال الوقت.

أجابه أحمد مُشكِّكاً في هذه الرواية:

ـ إنها أقاويل لم تثبت صحتها بعد. لكن في كل الأحوال علينا إشاعة أجواء بلدية تردع المتعاملين. إنهم نفرٌ قليل. ينبغي علينا محاصرتهم.

ـ وكيف يكون ذلك؟ سأل المختار.

ـ بالتضامن ورفع المعنويات. بجعل العائلات تتبرأ من المشتبه بهم. بِحثِّهم على الرجوع عن خطئهم أو خطيئتهم...

... دامت السهرة في منزل المختار حتى ساعة متأخرة من الليل. وقد انضمَّ إليها لاحقاً عددٌ من الأشخاص.

في الأيام والأسابيع التالية شهدت الخيام نشاطات غير عادية لشُبَّان راحت أخبارهم تتناقلها الألسُن من بيتٍ إلى

بيت. تحدَّث الناس عن عمليات تدريب وتوزيع للسلاح. قالوا إن المعركة أقرب مما يتصوَّر البعض.

خاض علي بصحبة رفيقيه أحمد وحسن في النهر في إحدى الليالي ذهاباً وإياباً إلى العرقوب. كانت قواعد الفدائيين الفلسطينيين منتشرة على السفوح الغربية لجبل الشيخ. تحديداً في أحراش راشيا الفخار وكفر حمام والهبارية وكفرشوبا. وكانت إمدادات السلاح تأتي من هناك إلى الأحزاب الوطنية والأهالي. في حين كان يأتي السلاح الإسرائيلي مباشرةً عبر الحدود.

لم يكن لدى أحد تصورٌ واضح لما تُخبِّئُهُ الأيام القادمة. إلى أن فوجئ الأهالي ذات يوم برتلٍ من الدبابات الإسرائيلية يتقدَّم من الناحية الشمالية للبلدة بعكس المتوقَّع. فمستعمرة المطلة تقع على مرمى حجر من الخيام جنوباً. فيما تقع القليعة إلى الشرق. وقد حدث هذا الأمر في عز الظهيرة عندما كان الناس يأخذون قسطاً من الراحة استعداداً لليلةٍ جديدة من الاستنفارات.

انتشر الخبر كالبرق بين الأهالي.

ظهر المُسلَّحون بكثافة في الشوارع. هبط بعضهم إلى سهل المرج لنصب الكمائن. توجَّه آخرون إلى حارة الجلاحية لملاقاة الرتل الإسرائيلي. لم يطل الوقت حتى

أمطرت السماء قذائف. دوَّت صليات من رشَّاشات ثقيلة. خلت الشوارع تماماً.

كان علي ورفيقاه من بين مجموعةٍ انتشرت في حارة الجلاحية وأطلقت باتجاه الإسرائيليين قذائف (آر بي جي). لكن تعليمات سريعة بالإنسحاب صدرت بعد وقتٍ قصير من بدء المواجهة. فقد تبيَّن أن العدو زجَّ في المعركة بقوات كبيرة جداً. وأن البلدة أصبحت مسرحاً لعمليات قصف وحشية.

طلب علي من رفاقه المقاتلين أن يستعدوا للإنسحاب لحظة يبدأ هو بإطلاق النار. دوَّت قذيفة (آر بي جي) تبعها إطلاق نار غزير من كلاشينكوف. عَبَر المقاتلون الطريق المكشوفة باتجاه الشرق. سقطت قذيفة دبابة في حديقة المنزل الذي اختبأ علي بجواره. أُصيب في ساقه إصابةً مباشرة. تمدَّد تحت شجرة الصفصاف المحاذية للمنزل. نزع حزامه وربط به ساقه. زحف على التراب المبلَّل بالدماء وسط رائحة البارود التي عبقت في المكان. في تلك اللحظة فُتح بابٌ وظهر شخصٌ أمسكه بقوة من كتفيه. جرَّه بسرعة إلى داخل المنزل. كان هذا الشخص سعيد ابن المختار. امتلأت أرض الغرفة بالدماء. وضع سعيد خرقةً كبيرة على الجرح. راح يضغط عليه بقوة. كان يعلم أنها مسألة وقت،

وأن عليه أن يكسب المزيد من الدقائق ريثما يجد طريقةً لإحضار طبيب البلدة. لم يكن بحاجة لتكليف أحد بهذه المهمة، فقد سارعت أخته مريم لاستدعاء الطبيب من تلقاء نفسها. كان في الخروج من المنزل مخاطرة جسيمة. ولم تكد تنقضي دقائق حتى كان الطبيب حاضراً وفي يده حقيبته. عمل على إيقاف النزيف فوراً بواسطة الملاقط التي وضعها مباشرةً على الشريان النازف. انكبَّ بعدها على ربط هذا الأخير وتطهير الفجوة الكبيرة بالمعقمات. فعل هذا بسرعة. وقد أظهر علي قدرةً فائقة على الاحتمال. لكن قواه كانت قد وهنت كثيراً عندما انتهى الطبيب من عمله.

كانت أصوات الانفجارات لا تزال تدوِّي في أنحاء البلدة. نُقل الجريح إلى إحدى الغرف الداخلية. أزالت مريم آثار الدماء عن أرض الغرفة. في المساء أُذيع بيان عن منع التجوُّل في البلدة. علم الجميع أن الخيام أصبحت تحت الإحتلال بشكلٍ كامل. لكن لم تتوفَّر معلومات عن عدد الشهداء والجرحى الذين سقطوا أثناء الهجوم. صلَّى الأهالي من أجل أن يكون أبناؤهم قد انسحبوا بسلام إلى خارج البلدة. لم تغفُ حتى عيون الأطفال طوال ليلةٍ كاملة. كانت جدران المنازل تحول دون سماع الأنين المكتوم

داخل الغرف والردهات. إنه ليل الاحتلال الأول يُظلم فوق الخيام.

مع نسمات الفجر الأولى بدأت الحقائق تظهر. فقد وُجدت جثة الشرطي جميل على قارعة الطريق المؤديَّة إلى الساحة التحتا. كما وُجدت ثلاث جثث لشُبَّان في العقد الثالث من العمر في ساحة البُركة... وأخرى لطفل عمره خمس سنوات أمام منزله... وواحدة لامرأة في العقد الخامس في حديقة منزلها تبيَّن أنها زوجة التاجر المعروف أبي خليل. كما وُجدت آثار دماء وبقايا لحم بشري على الطرقات وفوق الجدران الفاصلة بين الحدائق والكروم.

أدَّت عمليات التمشيط إلى استشهاد طبيب البلدة داخل منزله بينما كان يُسعف أحد الجرحى.

تأمَّل علي ساقه المربوطة وطلب من اللَّه الرحمة للطبيب. قرأ سورة الفاتحة عن أرواح الشهداء جميعاً. مكث خمسة أيام مُختبئاً في منزل المختار. في الليلة السادسة عَبَرَ الطريق الرئيسية باتجاه الشرق. كان يجر ساقه وراءه. وصل إلى بلدة إبل السقي فجراً. في اليوم التالي كان يرقد في إحدى مستشفيات بيروت.

## الفصل الثاني

في مكانٍ ما من شارع أسعد الأسعد في الشيَّاح وهي منطقة من ضواحي بيروت تحلَّق عددٌ من الشبَّان حول سيارة أجرة. كان السائق بداخلها وقد فتح نافذته وأطلَّ قليلاً برأسه إلى الخارج وهو يتحدَّث. بدا عليه الإنفعال بحيث كان يمدُّ إحدى يديه من النافذة، وأحياناً يمدُّ الإثنتين ليشرح أمراً ذا أهمية. كان عدد الشبَّان خمسة، علي وأحمد وحسن وإثنان آخران.

سُمع السائق وهو يقول:

ـ لقد بلغَتْ المعاناة حداً لا يُطاق. هذا لسان حال كل من بقي في الخيام. لقد فرغت البلدة من الشباب وحتى من الفتيات. لم يبقَ فيها سوى العجائز والشيوخ والنساء والأطفال.

إنهم ينتظرون بفارغ الصبر الساعة التي سيرحل فيها جيش الاحتلال وعملاؤه.

سأله حسن:

ـ لكن ماذا يجري بالضبط؟

ـ ماذ يجري؟ ألا تعلمون ماذا يجري! إنهم يفتشون البيوت بحثاً عن شبَّان مختبئين وعن أسلحة. يفرضون الخوات. يسرقون وينهبون.يحكمون البلدة وكأنهم حكومة.

بالأمس أطلق عنصر مُقنَّع النار على فتى من عرب المنطقة فأرداه. إنها فوضى بكل معنى الكلمة.

ـ لكن من هو هذا المُقنَّع؟ سأل علي باهتمام.

ـ ألم تسمع به؟ إنه أحد أبناء البلدة. ومنهم من يقول إنه من بلدة مجاورة.

ـ هل أنت عائدٌ اليوم؟ سأل علي السائق.

ـ سأعود غداً صباحاً. ألا يحق لي أن أرتاح أربعاً وعشرين ساعة؟ إن أولادي في بيروت، أما زوجتي فقد توفيت منذ سنوات.

ـ سنذهب معك غداً إلى الخيام، قال علي.

ـ هل أنتم مجانين؟ سوف يقتلونكم على الفور.

ـ لن يحدث هذا لأننا سننزل في «إبل السقي».

ـ هذا كلام آخر. إذن هل نلتقي في هذا المكان غداً؟ لكن في أية ساعة بالضبط؟

ـ هل يناسبك في الثامنة؟

ـ نعم بالتأكيد.

كان علي قد شُفي تماماً من جرحه. لكنه شعر بأن هناك جرحاً أعمق قد فُتح في قلبه وذاكرته. وأن ما كان بالأمس القريب مجرد احتمال نظري أصبح الآن واقعاً ثقيلاً. كان عليه أن يقوم بواجبه الوطني، وفي ذات الوقت أن لا يُهمل

دراسته بعد أن التحق بإحدى ثانويات بيروت. فهذه السنة هي سنة الشهادة الرسمية.

تخطَّت عقارب الساعة العاشرةَ والنصف حين وصلت سيارة الأجرة إلى ساحة «إبل السقي». نزل منها خمسة شُبَّان. شكر علي السائق بعد أن نقده أجرته. توجَّه على الفور مع رفاقه إلى «نبع إبل» الواقع في أسفل الوادي. هناك عسكرت القوات المشتركة المؤلفة من الأحزاب والمنظمات الفلسطينية. تجمَّع عشرات الشُبَّان الخياميين المدرَّبين على حمل السلاح للقيام بمناورة حاسمة قبل الهجوم المرتقب. كان عليهم أن يبيتوا ليلةً قبل بدء التدريبات. اتفق علي مع المسؤول العسكري في المخيَّم على ضرورة القيام بزيارة أخيرة للبلدة لجمع المعلومات. وما إن حلَّ الظلام حتى كان علي ورفيقاه أحمد وحسن يتسلَّلون عبر الوادي الضيِّق نحو الهضبة الشرقية للبلدة. تواروا بسرعة في عتمة الشوارع والأشجار والبيوت. قصدوا منزل والدَيْ حسن. كانوا يعلمون أنه مكانٌ آمن.

فتحت زينب الباب. شهقت لدى رؤية شقيقها. دخلوا بسرعة. أقفلوا الباب وجميع النوافذ. بعدها تنفَّسوا الصعداء. قالت زينب:

ـ إخلعوا ستراتكم. سوف أجلب لكم إبريق الماء حالاً.

عانق حسن والدته وقبَّل يديها. ثم تبادل القبلات مع والده. رحَّب الوالدان بعلي وأحمد بحرارة. بدا قاطنو البيت مرتبكين إزاء ضيوفهم. وضعت والدة حسن إبريق الشاي على النار. قالت وكأنها تُصدر أمراً:

ـ الآن سوف تأكلون.

اهتمَّت زينب بإعداد المائدة في المطبخ. كانت تسترق النظر بين الحين والآخر إلى حيث كان الثلاثة يجلسون مع والدها. شعرت بأن هذا الحدث قد خرق رتابة حياتها. هزَّ مشاعرها وكيانها في الأماكن العميقة. أطلق فيها حماسة الشباب وثورته وكبرياءه. كان عمرها ستة عشر عاماً. أي أصغر من شقيقها حسن بسنة واحدة. وقد قال عنها أساتذتها في الثانوية أنها جادَّة وذكيَّة.

حين جهزت المائدة أعلنت بنبرة احتفالية:

ـ العشاء جاهز، تفضلوا.

أكلوا وشربوا الشاي وتبادلوا النكات فيما كانت زينب وأمها تراقبانهم من الغرفة المجاورة عبر فتحة الباب. أما والد حسن فقد فضَّل الاستلقاء في سريره علَّه يتَّقي آلام الروماتيزم التي أقعدته عن العمل منذ سنوات. بعد أن فرغوا من طعامهم انتقلوا إلى غرفة الصالون. ارتدى أحمد سترته وخرج. عاد بعد ربع ساعة بصحبة أحد الأشخاص.

بدا في العقد الرابع من عمره. كان يعرج. استقبله الشابَّان ببشاشة.

قال حسن:

ـ أهلاً بك يا صالح.

أجاب وكأنه يخشى أن يعلو صوته أكثر مما يجب:

ـ ماذا تفعلون هنا؟ لا شك في أنكم مجانين.

قال علي:

ـ جئنا نتفقَّد أحوال البلدة. نريد منك بعض المعلومات عن العملاء. ماذا يفعلون وماذا يقولون. جلس صالح. فك أزرار سترته. وقال:

ـ التوتُّر سيد الموقف. إنهم يتوقعَّون هجوماً. لقد عززوا نقاط المراقبة والحراسة. زادوا حملات الدهم للمنازل. أصبحوا يشكُّون في كل رجل وامرأة.

ـ هل أقاموا مواقع جديدة؟ سأل علي.

ـ كثَّفوا الدوريات حول البلدة، لكن لا مواقع جديدة ثابتة. أنت تعلم أن قوَّتهم الرئيسية موجودة في الثكنة.

ـ لكن ماذا عن «المُقنَّع»؟ سأل علي.

ـ إنه مسؤول عن عدة جرائم، لذا لا يريد أن يكشف عن نفسه.

ـ ألم يتعرَّف عليه أحد؟

ـ هناك إشاعات كثيرة، لكن الحقيقة ما زالت مجهولة.

إنه يظهر في الليل عادةً، أما في النهار فلا يراهُ أحد.

ـ سيأتي يوم تُفضح فيه هويته، علَّق أحمد.

دام اللقاء حتى ساعة متأخرة من الليل.

وقبل بزوغ الفجر عادوا إلى معسكرهم حاملين معهم آخر المعلومات عن أوضاع البلدة.

في اليوم التالي سرت شائعات عن هجومٍ وشيك، مما حدا بالقيادة العسكرية الإسرائيلية لأن تُرسل مزيداً من التعزيزات والعناصر العميلة في حملات تفتيش ودهم للمنازل. ثم ما لبثت أن لجأت لتجنيد كل الرجال القادرين على حمل السلاح. جعلتهم يتمركزون في نقاط مواجهة حول البلدة. لقد أراد الإسرائيليون أن يضعوا الآباء في مواجهة أبنائهم لدى وقوع أي هجوم.

راحت الأمهات يضربنَ كفاً بكف. راعهن أن يتواجه الآباء مع أبنائهم في معركة عسكرية خطَّط لها المحتلُّون. حدثت بلبلة في البلدة. رشحت أخبار عن دخول مقاتلين إليها. توتَّرت أعصاب العملاء. راحوا يجوبون الشوارع ويطلقون النار عشوائياً. هدَّدوا عبر مذياع الحسينية كل من يتعاون مع «المُخرِّبين». تمارض بعضهم للذهاب إلى إسرائيل خوفاً من المشاركة في المعركة.

بدأت تظهر أثناء الليل القنابل المضيئة. ثم راحت تُسمع أصوات الطلقات النارية لأتفه الأسباب، كنباح كلب أو قفز قطة عن سياج أو اصطدام خفَّاش بأغصان شجرة، وأحياناً من غير سبب.

في منزل أبي حسين والد أحمد احتدمت النقاشات بين أم حسين وأبنائها. كانت تخشى أن يتواجه الأب والابن في معركة فيقتل أحدهما الآخر. روَتْ لزوجها وأبنائها أنها رأت حلماً مزعجاً يذهب فيه أبو حسين وأحمد إلى بلاد بعيدة ولا يعودان منها أبداً. كما رأت أحد العملاء يحتل منزلها فيما هي والأولاد يهيمون بحثاً عن مأوى في مكانٍ آخر. إذن كيف السبيل إلى تحذير أحمد من أن والده يُرابط في نقطة حراسة خارج البلدة؟ هذا هو الهاجس الذي أرَّق ليالي أم حسين. راح أولادها يقلِّلون من احتمال حدوث أسوأ التوقعات.

لكن هذا لم ينفع. فبقيتْ على إصرارها وخوفها. لم تكن الحال في منازل البلدة الأخرى بأفضل. كانت المشاحنات تدور حاملةً هموم متشابهة. لكن في منازل العملاء كانت تحتدم أشرس النقاشات وأقواها. ففي منزل الحاج توفيق المجاور لمنزل أبي حسين سُمعت أصوات عالية يتجادل أصحابها إلى درجة إطلاق الصُراخ والشتائم.

قالت زوجة الحاج توفيق لابنها نجيب:

ـ لستُ أمك ولا أعرفك. لقد سلكتَ طريقاً لا تُشرِّفنا أبداً. ألم أُحذِّركَ دائماً من مغبة التعامل مع الإسرائيليين؟ واللّه لو قتلوك الليلة لن أبكي عليك.

ـ قلتُ لكِ كفى، صرخ نجيب في وجه أمه.

تدخَّلت أخته سعاد:

ـ سلِّم بندقيتك وعُد إلى منزلك. إن الفرصة أمامك لا زالت سانحة. أنتَ لم تتورَّط بعد بقتل أحد.

ـ أنتما مجنونتان، لا تفقهان شيئاً. ألا تعلمان أن الإسرائيليين سيربحون. إنهم دائماً يربحون.

ـ لكنك عميل يا نجيب! أنت عميل! صاحت سعاد.

ـ إخرسي أنتِ... صفعها على خدِّها.

تدخَّل الابن الأصغر للحاج توفيق فدفع أخاه نجيب محاولاً رميه أرضاً. أفلت هذا الأخير منه ولقَّم بندقيته وأطلق منها النار في الهواء. أصابت الرصاصات سقف الغرفة والنافذة فتطاير الزجاج وعلا الصراخ في المنزل. تقاطر الجيران إلى منزل الحاج توفيق وظهر مُسلَّحون سرعان ما ابتعدوا بصحبة نجيب.

استمرَّت هذه الأحوال أياماً عدة. إلى أن حدث الهجوم المرتقب في ليلةٍ من ليالي نيسان. انهمر الرصاص من كل

مكان. دوَّت قذائف الآر بي جي. اشتعلت سماء البلدة بالبرق المتواصل. عبقت في شوارعها الداخلية رائحة البارود. هدأت المعركة بعد أقل من ساعة. لكن عمليات التمشيط استمرت لساعتين. خرج الأهالي بعدها لملاقاة أبنائهم المقاتلين. أظهروا مشاعر متناقضة في لحظة توتُّر استثنائية. فالحقيقة المُرَّة هي أن المعركة دارت بين أبناء البلدة الواحدة فيما انسحب الإسرائيليون من الثكنة يرافقهم عملاء من خارج البلدة. انتشرت كالهشيم الأخبار عن جثث تملأ الشوارع، وعن جرحى سقطوا.

لم تفرح أم علي بملاقاة ابنها وقد أتاها محرِّراً، فلقد شغل بالها طوال الوقت أبو علي الذي كان يحرس موقعاً ما خارج البلدة. ضمَّت علي إلى صدرها ثم راحت تهزُّه قائلةً:

- أين أبوك يا علي؟ أين أبوك؟ أدركه قبل أن يحصل له مكروه.

أما في منزل أحمد فقد كانت والدته تصرخ بأعلى صوتها:

- لا تطأ عتبة البيت قبل أن تُحضر أباك. لقد أخذوه إلى موقعٍ قرب الثكنة.

في منزل حسن خيَّم قلقٌ من نوعٍ آخر. لم يكن والده مُرابطاً في أي موقع بسبب مرضه. ولكن حسناً نفسه كان

مصاباً. رصاصة عمياء اخترقت بطنه. كان بحاجة إلى من ينقله بسرعة إلى أقرب مستشفى. لكن طريق مرجعيون ـ القليعة كانت مقطوعة. فتعيَّن نقله سيراً على الأقدام إلى إبل السقي أولاً. ذهبت والدته معه، فيما بقيت زينب في البيت للاعتناء بوالدها.

في منزل الحاج توفيق سُمع نحيبٌ مكتوم. كانت زوجة الحاج تبكي ولدها نجيب بعد أن أبلغها ابنها الأصغر بأنه رأى جثَّته ملقاةً في الساحة. تعالى النحيب أكثر عندما علمت سعاد بالأمر. أما والده فلقد جلس صامتاً وكأنه أخرس.

في الصباح حصلت مُشادَّة بين أحمد وأمه بعد أن طلب منها أن تغادر البلدة على عجل مع جميع أفراد الأسرة، قالت له:

ـ وأبوك يا أحمد!! كيف أغادر البلدة من دونه؟

أجابها محاولاً تهدئتها:

ـ دعي هذا الأمر لي. سوف أذهب للبحث عنه حالاً.

قالت بإصرار:

ـ لن أبرح هذا المكان إلاَّ وأبوك معي.

قال محتداً:

ـ سوف تتعرَّض البلدة للقصف بلا هوادة. عليكم بالمغادرة حالاً، لا تهدروا الوقت.

ـ تدخَّلت سميرة شقيقة أحمد قائلة:

ـ كيف نغادر ونحن تسعة أشخاص؟ وكيف ننقل أخوتك الصغار عبر الوادي إلى إبل السقي؟

ـ ليس لدينا خيار آخر. لقد بدأ الأهالي بالنزوح. هناك صفٌ طويل يعبر الوادي. الجميع يحملون أطفالهم وما خفَّ حمله من متاع. لن أفعل كما فعل صديقي، لقد هدَّد أمه بالسلاح لكي ترحل.

ـ لكنكم ستبقون هنا! قالت سميرة.

ـ نحن مقاتلون، نستطيع أن نحمي رؤوسنا...

ظهر علي في تلك اللحظة فأنقذ الموقف. عندما رأته والدة أحمد هبَّت واقفة. سألته بلهفة:

ـ أخبرني يا علي، هل لديك معلومات عن زوجي؟

ـ اطمئنِّي، لقد علمنا أن الرجال الذين أُجبروا على الحراسة قد تركوا مواقعهم في الوقت المناسب. انسحبوا إلى إبل السقي. هناك سوف يُستقبلون بالترحاب. لقد أوصينا بهم. عليكم بالإسراع، لقد تأخرَّتم.

إمتدَّ صفٌ طويل من الأهالي على طريق إبل السقي. عجائز وشيوخ وأولاد. صُرر فوق الرؤوس وأطفال على الأكتاف. أقدام تتعثَّر بالحجارة والصخور. عيون حزينة دامعة منكسرة لا تتلفَّت إلى الوراء. أمهات تملأ صدورهن

الحسـرة. شيوخ مُطأطئو الرؤوس يغادرون أرضاً عاشوا فيها سنين عمرهم. حكايات تنطوي وذكريات تبتعد. إنها مسيرة أهالي الخيام إلى منفاهم البعيد في ليلةٍ من ليالي نيسان عام ١٩٧٧.

## الفصل الثالث

فجأةً اخترقت ولولات نسائية نائحة سكون المكان. لقد رفع الشبَّان ذوو الملابس السوداء النعش على الأكُف. تعالت صيحات: اللَّه أكبر. تدافع الناس أمام النعش ومن حوله. خرجوا من الممر الضيِّق إلى الساحة الفسيحة أمام «بناية معوَّض». هناك رُتِّبت الصفوف برحابة خالية من أي تنظيم. انطلق موكب التشييع يخترق شوارع الشيَّاح باتجاه «روضة الشهيدين».

سار وراء النعش شيخٌ مُعمَّم، إلى جانبه سار والد الشهيد وأخوه القادم من كندا على عجل، بالإضافة إلى المختار ورئيس البلدية وممثلو الأحزاب وجمعٌ غفير من أهالي البلدة. أما علي وأحمد فقد سارا في المقدمة رافعَيْن النعش على كتفيهما مع مجموعة من الشُبَّان باللباس الأسود.

وورُي جثمان حسن الثرى في «روضة الشهيدين» على أصوات لعلعة الرصاص. لم يكن بالإمكان نقله إلى الخيام بسبب الأوضاع السائدة هناك.

افتقد علي وأحمد رفيقهما. كانت بمثابة ضربة أليمة تلقياها غداة مشاركتهما في تحرير البلدة. لقد تحوَّل الاحتفال بالنصر إلى جنازة بعيداً عن أرض الطفولة بسبب الإختلال الكبير في ميزان القوى على الحدود.

أخذت الهواجس والذكريات علياً ورفيقه أحمد إلى تأملات وتخيُّلات في معنى الحياة والآخرة. داوما على الحضور يومياً إلى «روضة الشهيدين» لقراءة الفاتحة على قبر حسن. شوهدا وهما يُمضيان وقتاً طويلاً إلى جانب القبر. وقد التقيا مراراً بوالدة حسن وشقيقته زينب هناك. تذكَّرا أيام الطفولة البريئة. أيام اللهو واللعب في أزقَّة البلدة وشوارعها. كان حسن يحلم بأن يصبح طبيباً. وقد وعَدَ والده بأن يتولى علاجه عندما يحقِّق أمنيته، وأن يجعل والدته تعيش أياماً سعيدة، وأن يُقدِّم لزينب أجمل هدية يوم زفافها. كل هذه الأحلام أنهتها رصاصة واحدة. رصاصة عمياء وسط معركة هي بمثابة تمرين بسيط قياساً على ما كان يلوح في الأفق.

لم تكن الأحوال في بيروت بأفضل مما كانت عليه في منطقة الحدود. لا بل ربما كانت هنا أكثر سوءاً. فلقد تنقَّلَتْ الإشتباكات بين الميليشيات من منطقة إلى أخرى. نُظِّمت جنازات جماعية وأخرى فردية. تحوَّلت المدينة إلى مسرح دموي لمجموعات مُسلَّحة تكاثرت أعدادها كالفطر.

لم يؤمن علي وأحمد يوماً بما كان يجري في البلد من حروب أهلية وطائفية. كانا يعتقدان أن الخطر يأتي من الحدود الجنوبية. من الكيان الغريب القائم على أرض

فلسطين. لذا لم يتعاطفا مع أخبار الانتصارات التي كانت تُذاع عبر وسائل الإعلام. وعلى الرغم من انهماكهما بالتحضير لشهادة الرياضيات فقد دأبا على زيارة الخيام بين الفينة والأخرى. كانت البلدة شبه مهجورة. لم يكن فيها سوى شُبَّان مُسلَّحين وبعض المُسنِّين الذين رفضوا المغادرة «لأنه لم يبقَ من العمر إلاَّ القليل». من بين هؤلاء جداً علي وحسن وجَدّ أحمد لأمه. كانوا يبتهجون عندما يزورهم أحفادهم ليقضوا معهم بعض الوقت. كان جد أحمد يعيش وحيداً. فقد توفيت زوجته منذ سنة تقريباً، واستطاعت ابنته، والدة أحمد، أن ترعى شؤونه طوال تلك الفترة. إلا أنه رفض عرضها بالنزوح إلى بيروت. كان متشبِّثاً بالأرض التي عاش فيها ما يزيد عن الثمانين عاماً بقليل. في بادئ الأمر شعر بالوحدة. لكن الأمور تغيَّرت مع مرور الوقت بعد أن تحوَّلت البلدة إلى حصنٍ محاصر. صار المُسنونَّ وقد بلغ عددهم السبعين يتفقدون بعضهم بعضاً في المنازل أو يجتمعون في إحدى الساحات أو على إحدى المصاطب. كما أنهم دأبوا على دعوة بعضهم البعض لتناول الطعام سويةً، أو إرسال الطعام الساخن عندما كانت تطهو إحدى العجائز «الماش» أو «المنسوفة» أو ما شابه ذلك. لقد قرَّبت حياة الحصار والحرب بين مجموعة المُسنِّين

الصامدين في البلدة. أصبحوا يعيشون كعائلة واحدة. بينما تراوحت علاقاتهم بالمقاتلين، الذين كانوا خليطاً من أحزاب ومناطق وهويات مختلفة، ما بين الرضى والتأييد أحياناً، والفتور والبرودة أحياناً أخرى. هذا الأمر سببه احساسهم بانسداد الأفق أمام عودة الأهالي إلى بلدتهم. كان علي وأحمد يترددان على «خَتياريَّة» البلدة كلما سنحت لهما الفرصة. وقد أصبحت زياراتهما أكثر انتظاماً أثناء فصل الصيف بعد أن اجتازا امتحان الرياضيات بنجاح.

في إحدى الزيارات تطوَّعا لقطف ثمار التين والصبَّار. حملا السِلال الملآنة بالأكواز إلى «الخِتياريَّة» في بيوتهم، فنالا مكافأتهما وجبةً شهية من «المجدَّرة الحمراء» واللبن الطازج. تلك الليلة خيَّم هدوء لافت على المنطقة، فانعقدت سهرة من العمر على إحدى مصاطب الحارة الفوقا. تجمَّع أكثر من دزينة من الرجال تفوق أعمارهم السبعين عاماً. أحدهم وهو جَدّ علي لأبيه، ناهز عمره التسعين. بينما تقوقعت النسوة وأغلبهن لا يُبصرنَ عن بُعد، في ركنٍ قصيٍ من شرفةٍ أرضية. دارت الأحاديث حول أيام الماضي البعيد حيث كانت الحياة أكثر تقشفاً لكن أقل تعقيداً. اشتدَّت الحماسة أكثر لسرد الحكايات عندما زاد

عدد الحضور من الجيل الشاب، سواءٌ أكانوا من المقاتلين أم من الزائرين.

انقسمت السهرة إلى حلقات. كان الطقس جميلاً. لم يعكِّره سوى وجود البعوض بكثرة. راح الحاج إبراهيم، وهو جَدّ أحمد، يروي حكاية «القبضاي الأسود» الذي أتى برفقة «البيك» إلى الخيام، فأراد الأخير أن يُخيف به الناس، وبعد أن اجتمع أعيان المنطقة ورجالهم في مكانٍ ما من سهل المرج طلب البيك أن يبرُزَ للقبضاي أقوى رجل من بين أهالي الخيام. فتردَّد الحاضرون من أبناء البلدة بعدما رأوا بأعينهم العملاق الأسود وقد برزت عضلاته وانتفخت أوداجه وتجهَّم وجهه وعبس، «والحقيقة أن البيك كان قد طلب منه أن يفعل ذلك» أوضح الحاج إبراهيم، ثم أضاف قائلاً:

- لم يجرؤ أحد على منازلة الرجل الأسود، ولم أبادر أنا إلى ذلك لأن أحداً لم يطلب منِّي. كنتُ أشعر بأنني أستطيع التغلُّب عليه. لا يغُرَّنكم قصرُ قامتي، ففي الكِباش لا يستطيع أحد أن يلوي ذراعي، وقد رفعتُ يوم زفافي صخرةً عجز عن زحزحتها ثلاثة رجال.

هذا الأمر كان يعلم به أحد وجهاء الخيام الجالسين قرب البيك، فغمزني لكي أقترب منه، وحين فعلْت قال لي

هامساً: «أنت له يا إبراهيم». ثم التفت إلى البيك قائلاً: «لنرَ ماذا بإمكان هذا القزم الخيامي أن يفعل». وأشار لي بيده لكي أتقدَّم إلى حيث وقف الأسود شابكاً يديه فوق صدره. إنفرج ثغر البيك عن ضحكة مُدويَّة. وبانت أسنان المارد المخيف. وقفتُ قبالته ونظرتُ إلى أعلى. بقي جامداً في مكانه وقد استخفَّ بي. فما كان مني إلا أن أدخلتُ ساعدي بين فخذيه ورفعته بسرعة وضربتُ به الأرض تحت رجلَيْ البيك. كاد الأخير أن يقع عن كرسيِّه من شِدَّة الضربة. اكفهرَّ وجهه وقطَّب حاجبيه. قال غاضباً وقد نهض من مكانه: «أظنُّ أن الزيارة قد انتهت».

قال علي لأحمد بعد أن سمع قصة جدِّه:

ـ هل جميعكم في العائلة هكذا؟

أجابه أحمد مازحاً:

ـ هذا غيضٌ من فيض. لقد ورثتُ عن جدِّي فضائل كثيرة ليس بينها رفعُ الأثقال، فسواعدنا على العموم أقل قوةً من سواعد أجدادنا، أليس كذلك يا جدِّي؟

ـ إن أيامكم ليست كأيامنا. كان بإمكاننا أن نعيش على التين اليابس نهاراً بأكمله وكانت صحتنا كالحديد. أنتم مُرفَّهون يا ابني، تنامون على أسِرَّة مريحة وتأكلون اللحم والفاكهة كل يوم وتركبون السيارات بدلاً من الدواب. رحم

اللَّه جدَّتك، كانت مُدبِّرة منزل من الطراز الأول. كانت تخترع وجبات شهية من الحشائش والنباتات المختلفة. لم أشعر يوماً أنني فقير. كل هذا بفضلها هي. لقد رحلَتْ وتركتني. كنتُ أتمنى لو رحلتُ قبلها.

مسح الرجل العجوز دمعةً سالت بتؤدة على خدهِّ. لبى علي نداء جدَّتهِ الحاجة صفيَّة فتناول منها صينية كبيرة وُضعت عليها فناجين الشاي التي راح البُخار يتصاعد منها. وزَّعها على الحاضرين. وحين وصل الدور إلى جدهِّ الحاج عبدو قال له:

- حدِّثنا يا جدِّي عن أيام زمان عندما كنت تعمل في فلسطين. قال الحاج عبدو وهو يضع فنجانه على المصطبة بعد أن رشف منه رشفة:

- كنتُ قبل النكبة أعمل شرطياً في حيفا. كانت الحدود مفتوحة. وكان أهالي الخيام يقصدون الجليل للتجارة والعمل. فيما كانت فلسطين تحت سيطرة الإنكليز. هناك عاشرتُ اليهود لأول مرة. لا تسأل كم هم نظاميون. يحسبون الوقت بدقَّة. لكنهم ماكرون. ثم أنهم مُتعصِّبون. لقد كدت أصبح ضحيةً من ضحاياهم يوم اشتبكوا مع الفلسطينيين. يعود الفضل في نجاتي إلى صديقٍ عربي نبَّهني إلى أن الموظفين اليهود لم يحضروا إلى المصنع الذي

كُنَّا نحـرسـه. فـأدركنا أن شـيـئـاً مـا سـوف يحـدث. هربنا واختـبـأنا في مكانٍ بعـيـد، إلى أن وصلتنا الأخـبـار... «وقع انفجارٌ ضخم في المصنع فقُتل جميع العاملين فيه تقريباً». عدتُ من حيفا إلى هنا سيراً على قدميَّ. حمدتُ اللَّه على أنني ما زلتُ حياً.

ـ لكنك كدت تذهب ضحية الضبع الذي تربَّص بك على طريق المرج! قال علي لجدِّه:

ـ إنها قصةٌ أخرى... وراح يرشف الشاي.

حـتـى سـاعـة مـتـأخِّـرة من الـليل لم تكن الحكايات قـد انتهت بعـد. أما الجدَّات فقد أوينَ إلى النوم قبل الرجال. وكانت لهن أحاديث تبادلنها، وأخبار سردنها، وأوقات ملأنها بالكلام.

اسـتـمـرَّت سهـرات الـسـمـر هذه طوال فـصل الـصـيـف. لم يُنغِّصها سوى الإشتباكات المتفرقة التي كانت تندلع بين الفينة والأخرى في المنطقة. كانت القذائف تتساقط حول البلدة غالباً، وفي داخلها أحياناً، فيأوي الجميع إلى بيوتهم حيث يلوذون بالملاجئ أو الغرف الداخلية.

مع انتـهـاء فـصل الصيف أقـفـرت البـلـدة تماماً. لم تـعـد تشـهـد حـركـة زائرين أو قـادمين من أجل جلب قطع الأثاث قبل أن تتـعـفَّن في الـبـيـوت أو يـسـرقـهـا الـلـصـوص. ثم مع

حلول فصل الشتاء لم يعد يُشاهد في الشوارع سوى أشباح المقاتلين أو الرجال المُسنِّين أو العجائز أو القطط أو الكلاب الشاردة. حتى وتيرة الاشتباكات خفَّت، وقلَّ عدد المقاتلين. لكن عدد الكهول نقص واحداً بوفاة الحاج محمود زوج الحاجة فاطمة حين زلَّت به قدمه على عتبة منزله أثناء القصف. فقدِم أهله من بيروت وأقاموا له جنازة بمن حضر. ثم قفلوا عائدين من حيث أتوا تاركين الحاجة فاطمة وحدها في منزلها. لقد رفضت دعوتهم لها للذهاب إلى بيروت. قالت أنها ستبقى إلى جانب الحاج ولو كان ميتاً.

برد الشتاء جعل أجساد الكهول والعجائز تنكمش فتبدو أقل حجماً مما كانت عليه في السابق. تعرَّض الحاج حسين جدّ علي لأبيه لانتكاسة صحية أقعدته عن الحركة. صار على زوجته الحاجة رُقيَّة أن تخدمه وهو راقدٌ في فراشه. استعانت بالحاجة فاطمة في مواجهة هذه المصيبة. لكن لم يكد شهر شباط ينقضي حتى تنفسَّ الجميع الصعداء، فقد اجتاز مَن بقي حياً من الكهول شتاء هذه السنة... وها هو شهرُ آذار مقبلٌ بشمسه وأيامه الواعدة. لكن مع ارتفاع حرارة الشمس ارتفعت حرارة الاشتباكات. كانت القذائف تأتي من القليعة ومرجعيون. تقابلها قذائف من الخيام وإبل السقي. استمرَّت بمعدل أقل من عشر قذائف في

اليوم. لكأن الهدف من تلك الاشتباكات كان ابقاء المنطقة في حالة حرب منخفضة الوتيرة. لكن ما كاد ينتهي الأسبوع الأول من آذار حتى اشتدَّت وتيرة الحرب فأصبحت الاشتباكات تطول أكثر. كما أصبحت تُستخدم فيها أنواع جديدة من الأسلحة.

شعر سكان البلدة المُسنِّون بالخطر يتزايد. خافوا من أن تصطادهم القذائف العشوائية. كذلك خافوا من شح المواد الغذائية بسبب اشتداد المعارك. تقوقعوا في مجموعات مؤلَّفة من عشرة أشخاص على الأقل في البيوت التي بُنيت تحتها ملاجئ. كان هذا أفضل ما لديهم ليفعلوه لتعزيز فُرص نجاتهم. ولم يطل الوقت حتى أعلن راديو الجيش الإسرائيلي عن اجتماع لهيئة الأركان مع وزير الدفاع. لم ينتبه أحد في الخيام إلى هذا الخبر. بيد أن الجميع سمعوا دويَّ القصف والاشتباكات عبر الحدود عند قرية المجيدية ومستعمرة المطلة. لم تعد تُشاهد في شوارع الخيام سوى القطط والكلاب والجراذين. فقد أوى المُسنُّون إلى بيوتهم ومخابئهم.من هنا أصاخوا أسماعهم لما يجري في الخارج.

ثم في ليلةٍ من القصف المجنون انسحب المقاتلون من البلدة. كان هذا إنذاراً بأن أمراً خطيراً سوف يحدث. في

صباح اليوم التالي كانت الإذاعات تُعلن عن اجتياحٍ كبير للجنوب من قبل الجيش الإسرائيلي. صارت الخيام محتلة من قبل أن يدخلها أي جندي. فقد بلغت الدبابات «سوق الخان» في قضاء حاصبيا. لكن القذائف لم تعد تسقط داخل البلدة.

لم يعد الرصاص يئزُّ في شوارعها. لقد أصبحت هادئة بشكلٍ مريب. خرج المُسنُّون من مخابئهم ليدفِّئوا أجسادهم بأشعة الشمس. ذهب الحاج عبدو بصحبة الحاج إبراهيم إلى الحارة الشرقية لجلب العيدان اليابسة بُغية إحراقها لاستخدامها في إعداد الشاي وأعمال الطهو.

عرَّجا في طريقهما على الحاج قاسم والحاجة سعدى. فتبيَّن لهما أن الأخيرة تعاني من تقرُّحات في ساقها وأصابع رجلها على خلفية إصابتها بالسكَّري. كانت بحاجة لعناية طبية مستعجلة وإلا اضطر الأطباء لبتر ساقها. كان الحاج قاسم يعلم ذلك. لذا استعدَّ لنقلها إلى إبل السقي ولو كان مُضطراً إلى حملها. ومن هناك إلى بيروت أو إلى أقرب مستشفى. قال وهو يبحث وسط أكياس «المونة» عن شيءٍ ما:

ـ من المفترض أن يكون ابني حسن قد رُزق بمولود جديد. أريد أن أراه عندما أذهب إلى بيروت.

قال الحاج إبراهيم:

ـ لديَّ حفيدان في بيروت لم أرهما بعد. كم بودِّي أن أراهما قبل أن أموت.

تنهَّد الحاج قاسم وأطلق من صدره زفرةً عميقة، قال:

ـ ليتها تستطيع السير على قدميها! لقد وضعتُ الأعشاب على ساقها لكنها لم تتحسَّن.

ـ بامكانك أن تستخدم دابَّة لنقلها إلى إبل السقي. قال الحاج عبدو.

ـ هل سمعتما بأخبار الاجتياح؟ إن لديَّ راديو صغير هنا. قال الحاج قاسم.

أجابه الحاج إبراهيم وقد بدا مندهشاً:

ـ ألهذا ساد الهدوء عندنا! هناك أصوات انفجارات تُسمع من بعيد.

ـ هذا ما يقلقني. لستُ أدري إن كنتُ أستطيع الوصول إلى بيروت. سوف أحاول.

ـ أنصحك بالتريث ريثما تهدأ الأمور. إن السير وسط معركة محفوفٌ بالمخاطر. هذا إن سمحوا لك بالتحرُّك. قال الحاج عبدو.

ـ لكنني أنقل مريضة!! ألن يسمحوا لي؟ آه لو كان في القرية طبيب. لقد قتلوه. اللعنة عليهم.

بقيت الأمور في القرية هادئة لساعات. ثم فجأةً سُمعت جلبة من ناحية الساحة. كان الحاج قاسم قد غادر منزله للبحث عن دابةً.

شاهد دبابة تقف وسط الطريق، فاختبأ في أحد المنازل المجاورة. بعد قليل وصلت شاحنة وسيارة جيب. نزل منهما جنود مدجَّجون بالسلاح. أصدر الضابط أوامره بالعبرية. تفرَّق الجنود مجموعات وراحوا يفتِّشون المنازل المحيطة بالساحة. رابط الحاج قاسم في مكانه وراح يُراقب عبر شقٍ في النافذة ما يحدث. بعد ربع ساعة تقريباً عاد عددٌ من الجنود وهم يسوقون أمامهم بضعة رجال ونساء عجائز. تلقَّى أحد هؤلاء حين تباطأ ركلةً على ظهره من مُسلحٍ مُقنَّع. صرخ من الألم ووقع على الأرض. صرخت إحدى النسوة «بالمُقنَّع». صفعها جنديٌ آخر على وجهها. انتزع منديلها ورماه على الأرض. داسه بجزمته. صاح «المقنَّع» باللغة العربية:

- قفوا إلى جانب الحائط. هيَّا بسرعة.

رآهم يصطفون أمام الحائط بوجوه مُحنَّطة وعيون ذابلة وأفواه نصف مفتوحة. لم ينبسوا ببنت شفة. لكن أجسادهم الهزيلة تراقصت حين اخترقتها الرصاصات قبل أن يهووا على الأرض في كومةٍ واحدة.

عمَّ سكونٌ قصير. ضغط الحاج قاسم بقبضة يده على حافة النافذة. دارى شعوراً مفاجئاً بالغثيان. لكنه وجد نفسه بعد قليل يتقيأ. حرص على ألاَّ يُصدر صوتاً. جلس على الأرض يبكي وقد وضع يده على فمه. تذكَّر زوجته التي تنتظره في البيت ليصطحبها إلى بيروت. هبَّ واقفاً. ثم انسلَّ من الباب الخلفي للمنزل المهجور. عَبَر حديقته إلى الشارع الآخر. لكنه لمح جنوداً قادمين. هرب باتجاه الحسينية وحارة «الميسة». شاهد سيارة جيب تقف في وسط الشارع. اختبأ تحت شاحنة قديمة مرميَّة إلى جانب الطريق. راح يُراقب الجنود الذين تكاثروا في المكان. سمع كلمات عبرية وأخرى عربية. رأى أقدامهم تروح وتجيء بالقرب من الشاحنة وقد أخفتهُ الحشائش الطويلة عن أعينهم. بعد دقائق رأى مجموعة من العجائز والكهول يُساقون إلى وسط الساحة الفوقا. توقَّفوا بناءً على الأوامر. دفعهم الجنود إلى الوراء ببنادقهم فوقعوا على الأرض. بعدها أُمروا بالنهوض بواسطة الجزمات. تحوَّل الأمر إلى مباراة في الركل والرفس. راح الجنود يقهقهون. قال «المُقنَّع»:

ـ من منكم يستطيع النهوض سوف نعفي عنه. الباقون سنقتلهم.

لم ينهض أحد.

بقيت الكتلة البشرية الملتصقة بالأرض صامتة.

تراجع الجنود إلى الوراء. قال أحدهم بتردُّد:

ـ أظنهم ماتوا.

أثار الأمر فضول الضابط. ترجَّل من سيارة الجيب. وقف قُبالتهم. تأمَّلهم قليلاً، ثم أصدر أمراً بالعبرية، تولى أحد الجنود ترجمته:

ـ أنتَ وأنتَ وأنتَ... أعدموهم.

اصطفَّ الثلاثة كفرقة الإعدام. لقمَّوا بنادقهم. رفعوها وأمطروهم بالرصاص. سحب «المقنَّع» مسدَّسه وأطلق رصاصة «اليقين» على رأس كُلٍ منهم. أعاد مُسدَّسه إلى مكانه وأشعل سيجارة.

لم يحفظ الحاج قاسم من وجوه الضحايا سوى وجهَيْ الحاج عبدو والحاج إبراهيم. تذكَّر أنه أعطاهما هذا الصباح حزمةً من الأعشاب البرِّية لتليين المعدة.

قال لهما: «إننا ذاهبان إلى بيروت ولا حاجة هناك لمثل هذه الأشياء».

مرَّ بعض الوقت قبل أن يفيق من ذهوله. تذكَّر زوجته. كان عليه أن ينتظر ريثما يختفي الجنود قبل أن يعود إليها. سوف يختبئ وإيَّاها في القبو. هناك لن يعثر عليهما

أحد، لأن للقبو بابٌ سرِّي. كما أن فيه من المؤونة ما يكفي للمكوث طويلاً بين جدرانه.

طال انتظار الجنود. كانت طلقات النار لا تزال تُسمع في فضاء البلدة. صبرَ حتى اختفت الشمس فغادر مخبأه. سار بمحاذاة الجدران والبيوت حتى وصل إلى منزله. كانت بوابته الخارجية نصف مفتوحة. دخل وأقفلها بسرعة. نادى زوجته فلم تُجب. أشعل شمعة وراح يناديها: «أين أنتِ يا حجّة؟»، دخل إلى غرفتها فوجدها نائمة في سريرها. كان قلبه يخفق بشدَّة. فقد خشي أن يجدها ميِّتة. اقترب منها فرأى ثقباً مفتوحاً وسط جبهتها. ندَّت عنه صرخة حادَّة كتمها على الفور. دفن رأسه في طرف الوسادة. طوَّق بذراعيه جسدها البارد وراح يبكي بصمت. أمضى الليل كله بجوارها وهو يشهق. تمنَّى لو أنه مات معها. لو أن الإثنين ماتا وهما متعانقان.

لم تكد خيوط الفجر تُبدِّد عتمة الليل حتى دبَّت حركة مفاجئة في الشارع. فتح الباب وأصاخ السمع. سمع أصواتاً تقترب من منزله. أدرك أنها لجنود إسرائيليين وعملاء. إتجَّه فوراً نحو القبو. من هناك سمع جلبتهم وأصواتهم. كانوا فوقه تماماً. حين ذهبوا انتظر بعض الوقت قبل أن يصعد. حين نظر عبر شق الباب رآهم يضعون جُثَّتها في

شاحنة. أقفل الباب وألقى بنفسه على كرسي. أدرك للتو أن وجـوده في هذا المكان لم يعُـد مُـجـدياً. لكن أين يذهب و«الأوغاد» يملأون البلدة؟

شعر بحقدٍ هائل عليهم. راودته فكرة أن ينتقم. لكن أنَّى له أن يفعل ذلك وهو أعزل! ناهيك عن أنه عجوز! تذكَّر أنه قد يكون الشاهد الوحيد على المجزرة. لمعت في رأسه فكرة. انتظر هبـوط الليل وانطلق نحـو الوادي المؤدِّي إلى إبل السقي. من هناك أكمل طريقه شمالاً حتى آخر حاجز للإحـتـلال. تخطَّاهُ سـالكاً طريقـاً وعـرة بين الحـقـول والبساتين. لم يتساءل من أين أتته هذه القوة ليقطع كل تلك المسافة سيراً على قدميه. كان تفكيره مُنصبَّاً على هدفٍ واحد: أن يصل إلى بيروت.

## الفصل الرابع

وضعت ندى شقيقة علي صحون «المغلي» فوق الصينية الكبيرة. ثم راحت ترشُّ فوقها جوز الهند واللوز والجوز قبل أن تحملها إلى الضيوف الجالسين في الصالون. قالت زوجة المختار وهي تحمل صحنها بيدها:

ـ مبروك عريسكم.

ردَّت أم علي وكان السرور بادياً في عينيها:

ـ أرجو أن تفرحي قريباً بابنٍ لسعيد. لقد سمعتُ أن زوجته حامل.

ـ دخلت في شهرها الثامن. لم يعد إلاَّ القليل لكي تلد...

قالت أم سعيد وهي تنهض للسلام على المرأة العجوز التي أطلَّت من باب الصالون. تابعت حديثها موجِّهةً كلامها لها:

ـ مبروك عريسكم، لقد أعطاكم اللَّه «حسن» لكي يبقى بينكم.

ردَّت المرأة:

ـ حفظ اللَّه أولادك يا أم سعيد. إن شاء اللَّه تُرزقين بأحفاد قريباً.

ـ هي بضعة أسابيع كما قال الطبيب. لكن كيف حال أبي محمد؟

ـ صحته ليست على ما يرام. لقد اشتدَّ عليه «الروماتيزم».

ـ شفاه اللَّه. حفظهُ لكِ ولزينب.

.. في غرفة الصالون المجاورة كانت تدور أحاديث بين أهل البيت والضيوف من الرجال.

قال المختار:

ـ هذا أول الغيث. أرجو أن تجعلهم دزينة. لقد قلتُ لسعيد هذا الكلام.

ردَّ عليّ وهو يفتح شُبَّاك الغرفة بعد أن عبقت برائحة الدخان: لن أدخل مع سعيد في سباق من هذا النوع. أظنُّه سيسبقني بأشواط. لقد وجدته البارحة مُتحمِّساً لهذه الفكرة.

ضحك أحمد فقال له المختار:

وأنتَ؟ ألم يحن الوقت لتفعلها!

ـ ألا تعلم أنه خاطب؟ قال علي.

ـ نعم، لقد خطوتُ أول خطوة نحو القفص.

ـ أهي من الخيام؟ سأل المختار.

ـ أمها خيامية، أما أبوها فمن النبطية.

ـ حسناً فعلت. لكن عليك الإسراع. أليس جميلاً أن يكون ولداكما من جيلٍ واحد كما أنتما؟

قال المختار متسائلاً وقد مال برأسه نحو أحمد منتظراً منه إجابة.

تدخَّل أبو علي في الحديث. قال وهو ينفث دخان سيجارته:

ـ علينا أن نعوِّض الذين ماتوا. الكبار منهم والصغار.

أجاب المختار:

ـ نعم. هل قرأ أحدكم التحقيق الذي نشرته إحدى الصحف عن الخيام؟

ـ أنا قرأته، قال أحمد.

ـ يقول التقرير أنها دُمِّرت عن بكرة أبيها.

ـ ذكر بعض الشهود أن جدران البيوت والسقوف والشرفات قد انتُزعت منها قضبان الحديد.

ـ قرأتُ أيضاً أن جيش الاحتلال حوَّلها إلى حقلٍ كبير للرماية. وأن ضباطه يختبرون فيها أنواع جديدة من الأسلحة.

تدخَّل علي قائلاً:

ـ إن ما جرى يدلُّ على سياسة انتقام أكثر منها سياسة سلب ونهب. هذه الأمور تُترك عادةً للصوص الصغار.

ـ أنت يا علي تعمل في إحدى الصحف، هل لديكم إحصاءات عن أماكن انتشار مهجَّري البلدة؟

سأل المختار.

ـ لا يوجد إحصاء دقيق. لكن المعلومات تقول أن أكثر من ثمانين بالمئة من الأهالي هم في بيروت والضواحي. أما الباقون فيتوزَّعون بين البقاع والجبل وطرابلس. وهناك قسمٌ سافر إلى الخارج. لقد تعدَّدت المنافي لكن الكتلة الأكبر تعيش هنا. إن المأساة تكمن في أن كثيرين مضطرُّون لتجرُّع كأس التهجير أكثر من مرة.

ـ هل صحيح أن عائلة عمك أبي محمد قد انتقلت من شارع معوَّض؟ سأل المختار.

ـ لقد احترق المبنى الذي كانوا يسكنون فيه. الآن هم يحتلون شقة في «مارون مسك».

ـ لكن هذا الشارع قريب من خط التماس!

تساءل المختار.

ـ إنه خط التماس بذاته. لا تستطيع بلوغه إلاَّ من وراء أكياس الرمل. إن شرفتهم مُقفلة لوجود قناص قُبالتها، أوضح علي.

ـ كثيرون من بلدتنا ذهبوا ضحية القنص، قال أحمد، ثم أضاف:

ـ لقد نلنا أيضاً حصَّتنا من السيارات المفخَّخة. إنها أثمان ندفعها بعيداً عن مسقط رأسنا.

ظلَّ علي وزينب يستقبلان المهنئِّين بولادة أول طفلٍ لهما بعد سنةٍ واحدة من زواجهما. والحقيقة أن علياً بعد أن دخل إلى كلية الاعلام في الجامعة اللبنانية، وبعد أن استلم وظيفةً في إحدى الصحف، رأى أنه آن الأوان لكي يعقد قرانه على زينب. هكذا تُوِّجت علاقة الإعجاب المتبادل بينهما بالزواج والإنجاب.

كانت عائلتهما الجديدة واحدة من عشرات العائلات التي أبصرت النور في شقة مُحتلَّة. هنا لم يختلف نمط حياتهم. حروب واشتباكات وجنازات شبه يومية. نظمَّوا مسيرات احتجاج على ما آلت إليه مصائرهم. لكنهم كانوا يعودون في كل مرة إلى مآويهم المتهالكة على خطوط التماس وكأنها قدرهم. استمرَّت المنافي تجلدهم وتؤرِّق لياليهم.

جلس علي وراء مكتبه في الطابق الثامن من مبنى الصحيفة المُطل على البحر. كان يُحرِّر مقالة عن «الديمقراطية في الوطن العربي» عندما هدرت في سماء المدينة طائرات حربية نفَّاثة. تبعتها أصوات انفجارات ضخمة هزَّت المبنى. توالت الإنفجارات مع هدير الطائرات. رن جرس التلفون.

ـ آلو... أهلاً أحمد... نعم... نعم... أين يتركَّز القصف؟

... المدينة الرياضية!... هذا رأيي أيضاً، إنها مُقدِّمة لعدوان كبير... أراك قريباً... مع السلامة.

شطب موضوع «الديمقراطية» ورمى الورقة في سلَّة النفايات. سجَّل عناوين جديدة: بيروت تُقصف بوحشية. الجيش الإسرائيلي يدخل الأراضي اللبنانية. عدوان إسرائيلي واسع النطاق...

خرجت صحف بيروت «بمانشيتات» تتحدَّث عن الحرب.

نزح قسمٌ من سكان العاصمة إلى خارجها. أصبحت مناطق الجنوب مفتوحة أمام جيش النازحين. عاد نفرٌ قليل من أهالي الخيام إلى اطلال بلدتهم. نصبوا خياماً في الأماكن التي كانت بيوتهم قائمة فيها.

عاد علي إلى الخيام مع جنازة عمِّه والد زينب.

رأى البلدة مدفونة وسط حقولٍ من القش والأعشاب. كانت معالم الدروب والطرقات قد زالت فتحوَّل المكان إلى أرضٍ برِّية موحشة. لكأن زلزالاً قد ضرب المنطقة فغيَّر خريطتها. لم يعُد أحد يُميِّز حدود بيته وأرضه. لم يعُد أحد يعرف حدود ذاكرته. لكن المفارقة الكبرى تجلَّت عندما احتفل الخياميون بعودتهم. أظهروا فرحاً استثنائياً وسط الدمار والخراب. لكأن لسان حالهم كان يقول: «لقد عُدنا ولن نُغادر هذا المكان إلى الأبد».

كان علي يُدرك أن قرار العودة الحقيقي لم يحن أوانه بعد. فالإحتلال إلى اتساع في الداخل بدلاً من الإنحسار. وزمن المقاومة الحقيقية التي لاحت تباشيرها في الأفق لم يزل في بدايته.

شهدت الخيام حركة إعمار خجولة ما لبثت أن اتسعت.لكن حواجز الاحتلال على الطرقات سببَّت للخياميين عذابات وإذلالات غير محتملة. شيئاً فشيئاً أصبح الانتقال من الجنوب وإليه أكثر صعوبة. كانت الحافلات تصطف لساعات طويلة على الحواجز. وكان العابرون مجبرين على نقل أمتعتهم من حافلة في هذا الجانب إلى أخرى في الجانب الآخر.

في عام ١٩٨٥ نفَّذ الإسرائيليون انسحابهم الثاني تحت ضغط المقاومة. هذا الحدث أدى إلى ولادة «معتقل الخيام» بديلاً عن «معتقل أنصار». عاد «المُقنَّع» للظهور. تصارع العملاء على حكم البلدة.

رست الأوضاع على أمر واقع يسمح للأهالي بزيارة بلدتهم بواسطة تصاريح تُعطيها سلطات الإدارة المدنية. هكذا راح يزور الخيام معظم أهاليها باستثناء مَن خدموا في القوات المشتركة سابقاً، أو المُشتبه بانتمائهم إلى حركة المقاومة الإسلامية.

وفي الوقت الذي كانت فيه الخيام تواجه قدرها مع المحتل الإسرائيلي كانت بيروت تعيش جحيماً من نوعٍ آخر. فلقد توالت الحروب الطاحنة على أرضها بين الميليشيات. توزَّعت آلام الخيامين ما بين البلدة الأم والعاصمة بيروت. كان حسن «ابن علي» قد بلغ التاسعة من عمره. في حين بلغت شقيقته فاطمة السادسة عندما توقَّفت الحرب الأهلية عام ١٩٨٩.

في ذلك العام أيضاً احتفل عباس «ابن أحمد» بعيد ميلاده السابع. وشقيقه إبراهيم بعيد ميلاده الخامس. جيلٌ بكامله أبصر النور في المنافي الداخلية. جيلٌ أطلق عليه المؤرِّخون «جيل الحرب».

لكن المقاومة استمرَّت وتصاعدت واشتدَّ عودها بعد أن تعافت الدولة من مرض الإقتتال الداخلي. فكانت سنوات التسعينيات سنوات البطولات والتضحيات الكبرى.

## الفصل الخامس

جلست فاطمة تكرز حبَّات البزر خلف طاولة في المطبخ. كانت والدتها تعد طعام الغداء. فيما راحت الجدَّة أم محمد تملأ مرطباناً زجاجياً بكُرات اللَّبنة قبل أن تغمُرها بالزيت حتى أعلاها. كان جهاز الراديو يصدح بأغنية لفيروز. في تلك الساعة خلت الشوارع من المارَّة بسبب قيظ الظهيرة. أما في منزل أم محمد فكانت نُسيمات الهواء تدخل وتخرج بحرية من الأبواب والشبابيك المفتوحة. مرَّ أسبوعان على قدومهم إلى البلدة. لم يخرجوا إلا قليلاً للتبضع، أو للقيام بزيارة، أو للمشاركة بعزاء. فزوَّار الصيف لم يألفوا العيش في مكانٍ يعجُّ بالعملاء والمُخبرين. أما الفتيات فكُنَّ يتجنَّبنَ الظهور لِئلاً يَستدرِجنَ عن غير قصد الشريحة السُفلى من هؤلاء.

نادت زينب ابنتها:

ـ فاطمة! أنظري من يقرع الباب. هناك صوتٌ ينادي.

هبَّت فاطمة من مكانها لاستقبال الوافد الضيف.

كان الباب مفتوحاً. قالت بعفوية:

ـ أهلاً بكِ، تفضَّلي.

ـ هل أنتِ فاطمة؟ سألت الفتاة العشرينية التي ارتدت بنطالاً أزرق من الجينز تحت قميصٍ أحمر بلا أكمام.

ردت فاطمة:

ـ نعم، ماذا تريدين؟

أطلَّت زينب مُستفسرة:

ـ مَنْ هناك؟

قالت الفتاة:

ـ أنا من مكتب الإدارة المدنية، يريد المسؤول توجيه بعض الأسئلة إليها، لن يستغرق الأمر طويلاً.

ـ لكنها قاصر، لم تبلغ السادسة عشرة بعد، سوف أذهب إليه بنفسي.

قالت ذلك وهي تنزع مريول المطبخ عن خصرها.

ـ هو لا يريدكِ أنتِ، بل هي، إنها الأوامر.

قالت الفتاة بلهجة صارمة.

ـ إذن سوف أذهب معها.

ـ أنتِ حرَّة، لكن هذا لن يفيدكما في شيء.

تدخَّلت جدَّة فاطمة وقد سمعت ما دار بين المرأتين:

ـ ألستِ محاسن ابنة الحاج صالح؟

ـ أنا شقيقتها.

ـ إن جدَّك رحمه اللَّه هو ابن عم والدتي، هل تعرفين هذا؟

ـ إنهم يعطونني الأوامر وأنا أنقلها. لا أستطيع أن أفعل

شيئاً، لكنني أستطيع أن أطمئنك إلى أنها لن تمكث هناك طويلاً، مجرد استجواب.

ـ هل هي متَّهمة بشيء؟

ـ لا أظن ذلك، لو كانت مُتَّهمة لاعتقلوها.

ذهبت زينب وفاطمة بصحبة الفتاة. شاهدتا أمام المركز مُسلَّحيْن يُدخِّنان. راحا يُحدِّقان بهما بوقاحة وقد افترَّت شفاههما عن ابتسامتين ماكرتين. شعرَتْ زينب بالسخط والغضب. طلبت منها الفتاة أن تنتظر في الردهة المجاورة لمكتب المسؤول حيث يوجد مقعدان خشبيان قذِران. قالت لها زينب محذِّرة:

ـ إيَّاكم أن تمسُّوا شعرةً من رأسها!

ـ خيرٌ لكِ أن تصمتي. قالت الفتاة بلهجة تحذيرية.

دام انتظارها ثلاثة أرباع الساعة. خرجت بعدها فاطمة بصحبة الفتاة. قرأت زينب في ملامح وجهها قلقاً وتوتراً.. سألتها بإصرار:

ـ هل تعرَّضتِ للأذى؟

ـ لا، لقد وجَّه إليَّ بعض الأسئلة، ثم قال إن بإمكاني الذهاب إلى البيت.

رمقت زينب الفتاة بنظرة ذات مغزى، فأشاحت هذه الأخيرة بوجهها وخرجت.

هذه الحادثة عكَّرت مزاج زينب، فأصرَّت على معرفة ما دار بين ابنتها والمسؤول. شعرت أن فاطمة تحاول التملُّص من الأسئلة وأنها تُخفي عنها سراً ما.

في المساء انفكَّت عقدة لسان فاطمة. حدث هذا بعد أن خلدت الجدَّة إلى النوم، وبعد أن زادت زينب من ضغطها على ابنتها. قالت:

ـ طلب منِّي أن أعمل لحساب المخابرات. هدَّدني بأنه سيُصيبنا مكروه إن أنا أفشيتُ السر.

ـ ابن الأبالسة! ماذا قلتِ له؟

ـ قلتُ له أنني لا أفهم في هذه الأمور. فقال أن والدي يعمل مع المقاومة، وأنه يريد فقط أسماء الأشخاص الذين يزورونه.

ـ هل أعطيتِهِ أسماء؟

ـ لا، قلتُ له لا أعرف، فقال أن من مصلحتي أن أعرف في المرة القادمة عندما أزور الخيام.

بقيت زينب وابنتها صاحيتين إلى ساعة متأخِّرة من الليل. فكَّرت الأم بالعودة إلى بيروت في أسرع وقتٍ ممكن. أعطت لنفسها مهلة عدة أيام لئلا تثير شكوك العملاء. لكنها حين طلبت تصريحاً بالمغادرة استمهلها الموظف بعض الوقت. راودها شعورٌ سيء.

استعرضت في مُخيلَّتها أسوأ التوقعات. قالت في نفسها «إن الكرة الآن في ملعبهم، فماذا سيفعلون؟ إنهم من دون شك عاكفون على دراسة الموضوع. قد تطول هذه الدراسة! وقد تأتي موافقتهم سريعة لكن مشروطة!... وقد لا تأتي أبداً!»... راحت تنتظر. لم يطل انتظارها طويلاً، فقد حضرت إلى المنزل الفتاة إيَّاها التي أتت في المرة السابقة. طلبت منها مرافقتها إلى مكتب المسؤول.

ـ لكن ماذا يريد منِّي في هذه الساعة المُتأخِّرة من الليل؟ ألا يمكن تأجيل المقابلة إلى الصباح؟

ـ لا وقت لديه غداً، ينبغي أن تذهبي الآن.

ـ حسناً، سأكون جاهزة بعد قليل.

دخلت إلى غرفة فاطمة، قالت لها على عجل:

ـ إسمعي! مهما حدث لا تُخبري أحداً بما جرى إلاَّ والدكِ، سوف أذهب لمقابلة هذا الوغد.

لم تصل إلى مكتب المسؤول أبداً. فحين خرجت من منزلها كانت في انتظارها سيارة مدنية سوداء من نوع ب.إم، نقلتها مباشرةً إلى المعتقل. هناك أُفردت لها زنزانة خاصة، قبل أن تُنقل إلى زنزانة جماعية للنساء.

في الصباح توجَّهت فاطمة والجدَّة أم محمد إلى المركز للسؤال عنها. أُدخلت فاطمة بمفردها إلى مكتب المسؤول.

كانت طلباته واضحة: «المعلومات مقابل الإفراج عن والدتها». غادرت الخيام متوجهة إلى بيروت، فيما بقيت جدتّها في البلدة. كان خبر اعتقال والدتها قد انتشر، فوسائل الإعلام بثَّته قبل الظهر بقليل.

عانقت والدها وشهقت بالبكاء. طمأنها قائلاً:

ـ لا تخافي، إنها معتقلة إسوةً بالآخرين، سيأتي يوم تتحررَّ فيه.

كتمت فاطمة سرَّها عن أبيها. فنصيحة المسؤول المُبطَّنة بالتهديد ما زالت ماثلة في ذاكرتها. لقد عرفَتْ لأول مرة في حياتها، معنى الإبتزاز. عرفته في أكثر أشكاله وحشية. كانت بمثابة صدمة عنيفة لكيانها ووجدانها وذاكرتها البريئة. فكَّرت في تلبية طلبات المسؤول. لكنها عندما استعرضت أسماء الذين يزورون والدها أُصيبت بالهلع. تذكَّرت وصية أمها لها: «لا تُخبري أحداً سوى والدكِ». لكن ماذا لو أغضبَتْ المسؤول وانتقم من والدتها! يا للمأزق الرهيب!!

ظنَّ علي أن ابنته مكتئبة وحزينة بسبب احتجاز أمها في المعتقل. لم يكن يعلم ماذا يدور في خلدها.

إلى أن أتى يوم خرجت فيه عن صمتها وكتمانها بعد أن علمت أن شقيقها حسن منخرط في صفوف المقاومة، وأنه

يُشارك في العمليات العسكرية، وأن والدها يلتزم خطاً داعماً للعمل المقاوم في كتاباته الصحفية. قرأتْ المقالات والرسائل التي استنكر أصحابها اعتقال والدتها. قرأت كلمات الإشادة بأسرتها وبخالها الشهيد.

انتظرت والدها على العشاء. كان شقيقها كعادته مُتغيباً عن المنزل. قالت له بعد أن فرغ من تناول طعامه:

ـ أريد أن أطلعك على سر احتفظتُ به لنفسي ريثما أُقرر ماذا ينبغي عليَّ أن أفعل.

ـ وهل وصلتِ إلى قرار؟

ـ نعم، قراري هو أن أبقى وفيةً للخط الذي سارت عليه أسرتي.

روَتْ له بالتفصيل ما حدث لها ولأمها حتى لحظة اعتقالها. شعرَتْ بأن حملاً ثقيلاً قد أُزيح عن كاهلها. لقد نفَّذت وصية والدتها فأودعت أباها الأمانة التي كانت تحمل.

ظلَّ علي هادئاً وهو يُتابع تفاصيل الحكاية. قال لها عندما انتهت:

ـ لقد أبليتِ حسناً. لم يكن باستطاعتكِ أن تفعلي أكثر من ذلك. أنتِ لستِ الوحيدة التي تتعرَّض للإبتزاز. إنها معركة شرسة تلك التي نخوضها مع العملاء وأسيادهم.

لكن عليكِ أن تعلمي أن يوم التحرير بات قريباً جداً. لقد هزمنا الإسرائيليين عام ٩٣ ثم عام ٩٦ ولم يبقَ أمامهم سوى الإنسحاب من أرضنا.

سألَتْ بقلق:

ـ لكن ما هو مصير الأسرى والمعتقلين؟ أليس من الممكن أن يتعرَّضوا للأذى عشية الإنسحاب؟

ـ هذا الأمر مرهونٌ بالتطورات. لقد بدأ بعض العملاء بالإنسحاب من جيش لحد استجابةً لنداء المقاومة بالعفو عنهم. سوف تشهد الأسابيع المُقبلة تطورات حاسمة. ندعو اللَّه أن يُعطي والدتكِ القوة والعزيمة للصمود هذه الفترة من الوقت.

كلامُ أبيها رفع من معنوياتها. لكن قلقها على أمها لم يتبدَّد. فالحديث عن تطورات كبيرة سوف تقع أخافها. كانت تشعر بالذنب حيال أمها. وما انفكَّت الكوابيس تلاحقها أثناء نومها. ضعفت شهيتها. قلَّ نومها. هزل جسمها.

كان حسن يغيب عن المنزل أياماً متواصلة قبل أن يظهر من جديد. كان يتابع دراسته في الجامعة ويذهب للقيام بالعمليات العسكرية. وكان والده يعلم بالأمر. وقد ذكَّره حسن بنفسه عندما كان في سنِّه. غير أن علياً كان مُعجباً بابنه أكثر لأن المقاومة التي انخرط بها لم تكن إرتجالية

وموسمية ومُخترقة. كانت مقاومة منظَّمة عالية الكفاءة والتدريب يديرها عقل سياسي فائق الذكاء. لذا آمن بأن يوم التحرير آتٍ لا محالة.

وإذا كان علي وولداه قد أظهرا قدراً من الصبر والصلابة حيال حادثة اعتقال زينب فإن الجدَّة أم محمد كانت أقل صبراً. راحت تصعد إلى الثكنة صباح كل يوم. تقف أمام بوابتها الخارجية وتصرخ بأعلى صوتها مطالبةً بالإفراج عن ابنتها. صراخها كان يُضايق الحرَّاس فيعمد هؤلاء إلى تهديدها بزجِّها في المعتقل، فتُجيبهم: «إفعلوا، شرط أن أكون معها». ثم صارت تصعد بصحبة أم علي. ثم بصحبة عدد من النساء. صرنَ يهتفنَ ضد الإحتلال. بلغت أصواتهن زنزانات المعتقل. ردَّ المعتقلون بإطلاق الأناشيد. حدثت بلبلة داخل السجن. أطلق العملاء النار فوق رؤوس النسوة المُحتجَّات. ظهرت مصفَّحة يقف خلف رشاشها «مُقنَّع». صاحت أم علي:

ـ أنظرنَ، إنه «المُقنَّع».

تراجعت النسوة إلى الوراء. هبطنَ إلى أسفل الطريق واختفينَ بين البيوت.

لم يكن ما حدث أمام المعتقل معزولاً عن السياق العام الذي كانت تسير فيه الأمور. فالمقاومة شدَّت الخناق على

جيش الإحتلال حتى شارفت معنوياته على الإنهيار. خيَّم رعبٌ ثقيل على قلوب العملاء. راح كلٌ منهم يُفكِّر بإنقاذ رأسه. تمكَّن بعضهم من الهرب وتسليم نفسه إلى رجال المقاومة. البعض الآخر كان ينتظر اللحظة المناسبة ليفعل ذلك. أما الباقون فقد امتنعوا عن الإستسلام لتورطهم بأعمال مُشينة.

تلاحقت التطورات حين علمت قيادة المقاومة أن جيش الإحتلال يُخطِّط للإنسحاب على غفلة. تحرَّكت السيارات المدنية الملآنة بالركاب، والمُزدانة بالأعلام باتجاه المعابر الفاصلة بين المناطق المحتلة والمُحررة. اقتحمتها مُزيلةً السواتر والدشم من أمكنتها بواسطة السواعد الفتيَّة والجرَّافات. حدث هذا الأمر وسط ذهول العناصر المُكلَّفة بالحراسة. فانقسم هؤلاء بين هاربٍ ومستسلم ومُطلقٍ للنار. سقط شهداء وجرحى. لكن القافلة تابعت مسيرتها نحو القرى المحتلة. تحرَّرت هذه الأخيرة الواحدة تلو الأخرى. خرج الأهالي لاستقبال المُحررِّين بالزغاريد والدبكة.

وصلت أخبار الزحف البشري إلى الخيام. حصل هرج ومرج داخل البلدة. اقتحمت أم محمد وأم علي بصحبة عددٍ من النساء مقر الإدارة المدنية. هاجمت النسوة

الحــرَّاس. فــرَّ هؤلاء بســرعــة. دخلــنَ إلى مكتب المســؤول. صاحت به أم محمد:

ـ عليك أن تُطلق ســراح المعــتــقلين فــوراً. إشــتــرِ روحك بسلامتهم... وإلاَّ فإنك ستموت ميتة الكلاب.

قال بعد أن أدرك أن الحرَّاس قد هربوا:

ـ أنا لستُ آمر المعتقل، لكنني سأبذل ما بوسعي لإطلاق سراحهم.

ـ لا تجلس كالأبله وراء مكتبك، هيَّا تحرَّك. صاحت به أم علي.

اكفهرَّ وجهه وخارت عزائمه لدى سماعه تقريع المرأتين له أمام هذا الحشد من النساء. أدرك أنهن عرفنَ أن ميزان القوى انقلب لصالح المقاومة. الآن هو من سيُصغي إلى الأوامر وينصاع إليها. خرج بصحبة النسوة المُنتفضات. رأى الأهالي يتجمَّعون وسط الساحة. حمل مسدسه بيده وركض فجأةً باتجاه طريقٍ فرعي ثم اختفى عن أعين الجميع. لاحقتهُ الشتائم واللعنات. كبُر الحشد الذي تجمَّع في الساحة. راحت الحناجر تتوعَّد العملاء. زحفت الجموع باتجاه الثكنة. كان الضجيج يقوى والأصوات ترتفع كلما اقترب الحشد من المعتقل. أدرك العملاء أن البلدة قد سقطت من الداخل. فرَّت من المعتقل مصفحتَّان مليئتان

بالعناصر. عبرتا الطريق قبل أن يصل الأهالي إلى بوابة الثكنة. بعض العملاء فضَّل إلقاء السلاح والإستسلام للحشد القادم. إقتحم الأهالي بوابة المعتقل. دخلوا إلى باحته الداخلية. تصاعدت نداءات اللَّه أكبر، اللَّه أكبر... هاجم المُقتحِمون أبواب الزنزانات. راحوا يضربونها بقبضاتهم وأقدامهم. ارتفعت أصوات المعتقلين: اللَّه أكبر، اللَّه أكبر... راحوا يضربون بدورهم البوَّابات الموصدة. جلب بعض الرجال كمَّاشات ومطارقاً راحوا يهوون بها على أقفال الزنزانات. فُتحت هذه الأخيرة الواحدة تلو الأخرى. خرج المعتقلون إلى الحرية غير مُصدِّقين. بدوا مذهولين. لم يفهموا كيف انقلبت الأدوار فجأةً. رأوا الأهالي العُزَّل يسوقون العملاء إلى مكانٍ ما قيل أنه الحسينية. انعقدت حلقات الدبكة والزغاريد في باحة المعتقل. خرجت زينب تبحث عن أحبَّائها. عانقت والدتها وهي تسأل عن فاطمة. فتجيبها أم محمد بإيماة من رأسها وعينيها بأنها بخير. عانقت حماتها أم علي ونساءً أخريات نسيت أسماءهن من فرط دهشتها وذهولها. دخل رجال المقاومة البلدة في صباح اليوم التالي. كان العدو قد انسحب تحت جنح الظلام. وفي ساعات الفجر الأولى كانت آخر دباباته تعبر طريق الحمَّام ـ الدردارة نحو فلسطين المحتلة.

وصل حسن وعبَّاس إلى ساحة البلدة. تبعهما والداهما علي وأحمد. ثم وصلت فاطمة وجدُّها أبو علي وعشرات الخيامين القادمين من المنافي. اشتعلت البلدة بالإحتفالات. اختلطت دموع الفرح بدموع الأسى على سنوات العمر الضائعة. جابت الشوارع حشود تتذكَّر الماضي عبر الأمكنة والساحات والدروب والمنازل المُرمَّمة والمُهدَّمة. البعض ذهب فوراً إلى المدافن. إلتقت زينب بزوجها وولديها. كانت فرحتهم كبيرة بتحرير البلدة والمعتقلين. قالت لعلي:

ـ ليتكَ شاهدتَ المعتقل ساعة تحريره. لقد كان أشبه بسجن الباستيل يوم اقتحمه رجال الثورة الفرنسية. إنه يومٌ تاريخي.

بقدر ما حملت الأيام الأولى للتحرير من بهجة وأفراح بقدر ما فتحت جروحاً وملفات. فلقد ذهبَتْ جهودُ أهالي الخيام لاكتشاف المكان الذي دُفنت فيه جثامين شهداء المجزرة أدراج الرياح. أنكر العملاء الذين اعتقلهم الجيش اللبناني معرفتهم بالمكان. ولم تصل المحاولات التي بُذلت لمعرفة هوية «المُقنَّع» ورفاقه إلى نتيجة. لقد كان هو مفتاح القضية. لكن المشكلة أنه كان يوجد عشرات «المُقنَّعين» الذين رغبوا باخفاء وجوههم عن أعين الناس. هكذا ضاع

سر الجثامين المدفونة مع ضياع هوية «المُقنَّع». إنه لغزٌ ما زال يُحيِّر الخياميين حتى اليوم.

تذكَّر علي وهو يقرأ الفاتحة عن أرواح الشهداء في حسينية البلدة أن الحاج قاسم مات بعد وقوع المجزرة بشهر واحد. وأنه دُفن في بيروت. قال في سرِّه: «لقد مات من شدَّة الحزن. ليتنا نستطيع أن ندفنه مع زوجته الحاجة سعدى في يومٍ من الأيام».